أمريكا وسلوكنا الهروبي

الدكتور عبد الستار قاسم

25/تموز/2001

راجعت الكثير مما كتب عبر السنوات حول الموقف الأمريكي حيال القضايا العربية وبالأخص القضية الفلسطينية، ولاحظت أن الأفكار تتكرر وتكاد العبارات تتكرر نصا. رجعت إلى ملفات كثيرة ومجلدات ولمست عِظَم المساحة التي استحوذت عليها المقالات التي تتناول الموقف الأمريكي بالوصف والتحليل، ولا أظن أن موضوعا سياسيا آخر نال هذه المكانة في الصحف والمجلات العربية. ويخيل للمرء عندما يأتي بالمقالات التي كتبت على الأقل في العشرين سنة الأخيرة حول الموضوع رتلا أن أمريكا مفتاحنا إلى الحياة وعلى الحياة، وأن العرب سيبقون في هم وغم ما بقي الموقف الأمريكي تقليديا في دعم الكيان الصهيوني واستمر في نهب الثروات العربية.

كتب أحدهم عام 1981 قائلا بأن مجموعات الضغط الصهيونية تسيطر على المؤسسات السياسية الأمريكية ولا تستطيع الحكومة أن تتخذ قرارات لا تتوافق مع مصالحها وأهدافها. أما آخر فكتب عام 1983 أن العرب لا يستطيعون استمالة الولايات المتحدة إلا بعد تحريرها من كابوس ما أسماه باللوبيات الصهيونية. أما أحدهم فكان أكثر إصرارا في مقال كتبه عام 1996 حيث قال بأن اللوبي الصهيوني هو حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وهو الذي يقرر للرئيس الأمريكي كل ما يتعلق بأمور المنطقة. وتكرر هذا الطرح من قبل كتاب كثيرين في مقالات يصعب حصرها. ولم ينس الكتاب التوصية بأن على العرب أن يطوروا مجموعات ضغط خاصة بهم تؤثر على القرار الأمريكي.

تناول كتاب آخرون الموضوع من جانب آخر فقالوا أن العرب لا يفعلون ما يلزم من أجل إقناع الولايات المتحدة بالحق العربي. الدعاية العربية، حسب العديد منهم، قاصرة مقارنة مع الدعاية الصهيونية التي تتقن فن مخاطبة الغرب. ومنهم من قال أن العرب انفعاليين في خطابهم السياسي ولا يعتمدون الأساليب العلمية والمنطقية الهادئة، وتضيع قضاياهم في زخم الخطاب الخاطئ. واقترح أحدهم أن على العرب أن يعملوا على إرسال بعثات للغرب من أجل دراسة أساليب الدعاية والخطاب ليصبحوا خبراء المستقبل في الدفاع عن الحق العربي.

أما آخرون فوجدوا أن رأس المال هو الحاسم وأن الموقف الأمريكي لا يلين إلا من خلال الاستثمار. حسب هؤلاء، يستخدم الصهاينة أموالهم كوسيلة ضغط اقتصادية على القرار السياسي، وبإمكان العرب من خلال أموالهم الضخمة أن يغيروا مجرى السياسة الأمريكية مما يعني الضغط على الكيان الصهيوني لتغيير سياساته. يلوم العديد من الكتاب الحكومات العربية التي تملك ودائع في المصارف الغربية والتي تدر أرباحا طائلة على الاقتصاد الغربي عامة والأمريكي خاصة. فلو أودعت حكوماتنا، حسب رأيهم، أموالها بشروط لانتزعت مواقف أمريكية مختلفة عما عهدناه. ويتساءل كثيرون عن دور النفط في صناعة السياسة الدولية والتأثير على سياسات الدول المختلفة ويرون أنه بإمكان العرب مقاي0ضة النفط بالموقف السياسي.

ويصر الغالبية الساحقة من الكتاب أن العرب لا يسعون إلى الإضرار بمصالح الولايات المتحدة وإنما يقصدون إفهامها حقيقة الصراع الدائر لكي تتخذ مواقف متوازنة ترضي جميع الأطراف. إنهم لا يعرّفون المواقف المتوازنة لكنه من الواضح أنها تدور ضمن منطق المصالحة مع الكيان الصهيوني. ويأتي عدد من الكتاب على ذكر السلام العادل والشامل ويؤكدون أن هذا ما

يسعى العرب إلى تحقيقه وما يجب أن تتفهمه أمريكا. وكالعادة يُترك تعريف هذا المصطلح مفتوحا أمام كل التفسيرات والتأويلات.

باختصار، يُخيل لقارئ المقالات التي تكرر نفسها وتدور على مدى سنوات طويلة في ذات الحلقات أن كتابا عربا يسلّمون بأن أمريكا هي صانع هذا الكون مع احتمال أن يكون اللوبي الصهيوني الصانع الأكبر. يؤلّه العديد منهم الولايات المتحدة بحيث يخرج القارئ فاقدا لتوازنه باحثا عن أدعية علّ فيها منجاته والأمة من الغضب الأمريكي. لا يمكن للقارئ المطلع على انهزامية العاجز إلا أن يستحضر فورباخ وكأن نظريته في التدين قد صيغت خصيصا لتناسب بعض العرب. يرى فورباخ أن العاجز يخلق إلهه الخاص الذي يبرر له عجزه ويمده بالتفسيرات التي يهزأ بها من نفسه. لا يقوى العاجز على تحقيق أهداف ولا يستطيع تفسير ظواهر فيهرب من نفسه ليلقي بسبب عجزه على قوى خارجة عن ذاته تشكل سبب مأساته فيتخذها إلها جاهزا على الدوام ليكون سببا في التبرير. ولهذا تبدو مشكلة فلسطين بالنسبة لهؤلاء الكتاب واضحة المعالم وطريقها إلى الحل بيّن. أمريكا صاحبة الحل والربط وعلى العرب البحث عن المفتاح.

وإذا غاب فورباخ عن ذهن القارئ فإنه يتذكر الغول أو البعبع أو العفريت المارد الذي يطال كل شيء ولا يعجز عن المعجزات. أمريكا هي ذاك الذي بإمكانه أن يرفرف فوق رأس العرب بثوب أبيض حاملا طبقا ذهبيا يتربع الخلاص في وسطه.

لا شك أن مواقف الأمم مهمة فيما يخص القضايا المتعلقة بالصراعات والخلافات العابرة للحدود. يخطئ من يحاول أن يفصل نفسه عن العالم ويضرب بالرأي العام العالمي بعرض الحائط وكأنه لا قيمة له. قد لا يسعفنا الرأي العام لكنه من المهم أن يتفهم قضيتنا على الأقل حتى لا يتكون لديه انطباع سلبي يؤثر على تقبله لنا وعلى كتابته التاريخية والاجتماعية والأخلاقية. الرأي العام الأمريكي مهم ولا شك أن رأي الحكومة الأمريكية مهم أيضا. بإمكاننا أن نرتاح من عناء كبير لو كان الموقف الأمريكي حيال الصراع ضد الصهاينة مغايرا وامتنع عن تزويد إسرائيل بالسلاح والتقنية المتطورة. لكن هذه الأهمية مهما عظمت لا تبرر لنا التحول عن أنفسنا وديننا وأخلاقنا لنظن أن الولايات المتحدة هي المنقذ أو أن خلاصنا مربوط بخطاب سياسي موجه عالميا. والأمر لا يتعلق بالكتاب فقط بل بالسياسة العملية لأغلب الأنظمة العربية. لقد تم ربط العديد من السياسات العربية بالعجلة الأمريكية إلى درجة أن الحياة السياسية تكاد تتجمد إن غاب البيت الأبيض عن التطلعات ودقات القلوب. من اليسير جدا أن يلاحظ الناس العاديون بمن فيهم الأطفال أن الولايات المتحدة هي قبلة النشاط السياسي العربي وإلى درجة أن الثقافة الشعبية أخذت تربط الهموم السياسية العربية بالولايات المتحدة.

لكن ما رأيكم لو كرس الكتاب العرب الذين يبحثون في دور الولايات المتحدة في حل مشاكلنا جهودهم على البحث فيما نفعل من أجل حل مشاكلنا ومواجهة همومنا بأنفسنا؟ أيهما أنسب للأمة: صنع ثقافة الاعتماد على الغير أم صنع ثقافة الاعتماد على النفس؟ كيف كان من الممكن أن يكون تفكير "المواطن" العربي (لو) تعرض لمقالات احترام الذات بدل ذاك الكم الهائل من مقالات الاستجداء؟ ألا كان من الممكن أن تتطور اتجاهات فكرية وعملية تؤثر على المواقف الرسمية العربية فتنحو مناحي مختلفة عما اعتدنا عليه؟

يتميز حال عدد من كتابنا بذات السلوك الهروبي الذي تتميز به أنظمة عربية كثيرة. المسألة تتعلق بإرادة المرء أو النظام على القيام بالفعل أو الإمساك بزمام المبادرة مع القناعة بأن ساعده قوي ويستطيع مع المثابرة أن يطال الهدف وينال المبتغى. هذا هو المنطلق الأول والأساس للنجاح. قد ينجح المرء الآن من خلال الآخرين، وقد يمدون له يد النجاح مرة ثانية وثالثة، لكن المحافظة على النجاح والاستمرار به لن يكونا بمعزل عن الذات. ومن اعتاد الاعتماد على

الآخرين يصعب عليه المحافظة على ما أنجزوه له. ويبقى المثل التاريخي القائل: "لا تعلمني أكل السمك بل علمني كيف أصطاده" رأس حكمة لا يغيب عن ذهن وعمل إنسان فطن.

لم تعقد أنظمة عربية كثيرة حتى الآن العزم على شحذ الإرادة والاعتماد على الذات، وهي لا تكف عن إطلاق وعودها للشعوب العربية بتحقيق الإنجازات في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والديبلوماسية. لكنها ربطت تحقيقها للوعود بإرادة الآخرين وبالتحديد بالولايات المتحدة وبقيت بالتالي تحت رحمة الغير طالبة الرحمة والرعاية. وعلى هديها يسير مثقفون وكتاب عرب كثيرون لا يجدون ملجأ للعرب سوى استدرار العطايا التي تبدو أنها وعرة المسالك. ومع عدم الإنجاز وهروبا من مظاهر العجز والاتكالية تطورت اتجاهات فكرية أقرب ما تكون إلى الشعوذة تضخم الدور الأمريكي إلى ما هو فوق الطاقات والقدرات وتضع العالم وكأنه لعبة يتسلى بها الأمريكيون. وفي هذا ما يكفي للتبرير الذي يشكل غطاء لعدم الرغبة في القيام بالعمل الإيجابي الذي يحقق الذات الإنسانية ويرفع من قيمة الإنسان وهيبته وتأثيره على المحيط الذي ينشط فيه، ولسِتْر ما نحن فيه من إرادة مسلوبة لا نعمل باتجاه استردادها أو تحريرها من المعوقات التي تفرضها دول كبرى على رأسها الولايات المتحدة.

لا يتوقف الأمر عند الهروب من الواقع المؤلم الذي لا نرغب في الحديث عنه أو مواجهته بل أن الحديث عن الدور الأمريكي يدور في فراغ وأحيانا ضد التاريخ. من ناحية، لم تنتج آلاف المقالات التي كُتبت حتى الآن وعلى حوالي ثلاثين سنة خطوة إيجابية واحدة وما زالت تدور حول نفسها وتجتر ذات الأفكار والآراء. ومن ناحية ثالثة، لا تستند الكتابات على أفق تاريخي يمكن أن يشكل مقياسا لمصداقيتها أو أهميتها الفكرية. تجارب العرب مع الولايات المتحدة مريرة خاصة فيما يتعلق بقضايا الوحدة العربية أو دعم إسرائيل العسكري أو نهب الثروات بخاصة البترولية أو التسليح العربي أو التطور التقني، ولا يوجد في تاريخ علاقاتنا معها ما يشجعنا على الظن بأنها ستقف معنا في أي قضية جوهرية. حتى لو أخذنا الكويت مثالا لوجدنا أنه لولا مصالحها لما وقفت الولايات المتحدة مع الكويت والكويتيين. السند التاريخي واضح ولا يوجد مؤشر تاريخي واحد يبرر ذلك الحماس الذي يبديه كتاب كثيرون حول إمكانية تبدل الموقف الأمريكي. ألم تشجع الولايات المتحدة العرب على الذهاب إلى مؤتمر مدريد واعدة إياهم أنها ستكون عادلة وستعمل جاهدة على إحقاق الحق وإنهاء الصراع الدائر. ما فعلته لم يكن سوى جر العرب إلى مواقف إسرائيلية معلنة قبل سنوات طويلة علما منها أن جزءا كبيرا من العرب يكتفي بوعود ذات بريق تخدع الشعوب حتى لو كانت النتيجة المزيد من الهزائم.

لا يبدو لي أن السؤال حول ما يجب أن نفعله من أجل كسب ود أو شفقة الولايات المتحدة هو المهم، وإنما هو ذلك المتعلق بما يجب أن نفعل حتى توقن الولايات المتحدة أن الاستمرار في سياساتها لن يحقق لها مصالحها وسيجلب عليها الضرر. بمعنى أن الاستعطاف ولين الجانب ليسا بالوسيلة السليمة في ظل الوضع الذي نعيش، ولا تنقصنا التجارب للإقرار بهذا. في ظل العملية المسماة بالسلمية حرصت الولايات المتحدة على إرسال أحدث الطائرات الحربية لإسرائيل وعلى تزويدها بأحدث تقنيات الدفاع الجوي، ولم تتوان عن دعمها سياسيا واقتصاديا وماليا. ورفضت أمريكا أيضا أن تصر على تجريد إسرائيل من أسلحة الدمار الشامل التي بحوزتها بينما أصرت على مصر ضرورة التوقيع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية. من الواضح أن الولايات المتحدة تمعن باحتقار العرب والاستهتار بهم كلما زادت محاولات استدرار عطفها. وهذا ليس بالجديد تاريخيا لأن المستعطِف يؤكد باستمرار على وهنه وضعفه مما يفتح شهية القوي على الاستمرار في استغلاله وهيمنته.

يتلخص حالنا مع الولايات المتحدة في حقيقة اجتماعية وتاريخية وهي أنه لـــيس بإمكـــان المرء أن يتوقع من الآخرين معاملته بطريقة أفضل مما يعامل بها نفسه أو أن يطلب منهم ذلك. وليس بإمكانه أن ينال من الآخرين احتراما لا يوفره هو لنفسه. ولهذا أرى من الأجدى أن نركـــز نشاطاتنا على بنائنا الذاتي الذي يقودنا إلى التغيير والتطوير والتقدم والاعتـــزاز دون أن نتعـــالى فنغفل عن مخاطبة الآخرين واستمالتهم نحونا.